«أجنحة بيضاء لليأس» للشاعر وليد السويركي:

استجابات يظللها الانشداه والمفاجأة

محمد دلة*

وليد السويركي يلقي قصائده في محترف الرمال

ما أهون أن تجالد العاصفة! وكم نحتاج من حكمة الماء كي نعبر شرنقة الصمت لنمسك عليقة الكلمات تجهش بالقبس الأخير؟ وعلي الآن أن أخفض جناح الروح وأغرز في ذاكرتي ما نشز من فتنة الأسئلة لأجوس وصايا بيسان التي اختارتها الآلهة لتكون محرابا للصمت دون المدائن، أتعلم أن لن يصغي لصرختها أحد؟ أو يعلم ذلك الوثني أن في الصمت جمرة الكلام؟ وما الذي أقوله في حضرة الفتى البيساني وقد تعمدت قدماه بلزوجة الطين وطنين الصفيح الرمادي كشظف المنفى؟ ماذا أقول لاصطباره ولكبرياء النمل في خطاه، ولترف النحل في امتداده؟

لا بأس، فكل قراءة ظل، وكل ظل رؤيا، وكل رؤيا «أجنحة بيضاء» وكما يريد وليد السويركي فهي «لليأس» تمدد ريشها في 85 صفحة من القطع المتوسط وعبر 42 قصيدة تتزاحم شكل القصيدة النبضة الومضة وكأننا أمام هايكو يابانية، وما شذ عن تسلسل النبضات من قصائد أوى إليها إذ اتخذ شكل مقاطع صغيرة تنسجم مع الشكل العام للمجموعة.

قصائد الشاعر تشكل الصرخة الاولى له في مواجهة الأشياء فترى معظم استجاباته يظللها الانشداه والمفاجأة وعدم التوقع الصادر عن تحسس لنتوءات الوجع وعن نزف باتجاه القلب مخافة أن يُخدش جدار الأشياء.

وجدتها!
وجدتها!
لكنها
في زحام الموت والجنون
أضاعتني

فهو لا يفلسف الاستجابة بل يواجهها كما هي دون تعقيد مائلا الى رومنسية الرؤية وغنائية القصيدة، فهل استطاع الشاعر عبر ما اختاره من شكل ومن مضمون أن يؤثث قصيدته نحو ما أراد. لقد اختار الشاعر قصيدة النثر لتحمله، وقصيدة النثر اصعب القصائد، فلا شكل ولا موروث نتكئ عليه، وانما هي توتير لغوي وصعقات متوالية تصدم المتلقي وتشحذ خياله لاستكناه اللغة والميثولوجيا والصمت والبياض، وقد وفق الشاعر في توتير لغته حيث استند الى الحذف المتكرر ليخلق حالة من الترقب تفيض على قبابها الروح بالانسياب والاسئلة. ففي قصيدة «جرح أول»:

حبة الرمل تذكر
المفعول به محذوف
ملمس الصخرة يذكر
المفعول به محذوف
.....
وأنت تشقى
كي تتذكر رائحة التراب

وامتداد القصيدة كمنوالين سرديين يأخذ المنوال الأول شكل الاسم كمبتدأ والمنوال الثاني يأخذ شكل الجملة الفعلية كخبر للمبتدأ عبر فعلها المضارع الذي يشير ويؤكد حالة الاستمرار والتجدد في التذكر ليعبر عن قدرة الاشياء على الخلق والابداع، وبما أنه لا يستطيع التذكر فهو مصلوب على أجنحة اليأس، وحين يمتلك التذكر يمتلكه محفوفا بشقاء الطين والزنك وأوجاع فقد الاخوة والاصدقاء مسجونين أو شهداء في محاولة لرسم بيسان الدرب والذاكرة.

وفي قصيدة «سجن»:

النهر في ضفتيه
الطير في سمائه
الموجة في محيطها
الريح في الجهات الاربع
وأنت:
في المرآة

فهو يحذف الخبر في الجمل الخمس، ليطلق خيال القارئ يحلق في ملكوت ما وراء النص، وكأنه يشارك في كتابة القصيدة. ويجنح ايضا لاستخدام صيغة يفعّل التي تشي بالتمادي والاشتداد.

لمن تكحّل بالسواد الحرف؟
لمن تزيّن البياض بالكلمات؟

وكذلك استخدام صيغة «فاعلَ» والتي وان تحمل الالتباس في الفاعل فانها تشير الى التشارك وتحفز البحث نحو الفاعل الاخر فتكسر كسل التلقي.

علق القلب على ريح
كلما عانقت شجرا
نزف
كلما صادفت في تيهها غيمة
بكى وارتجف

وكما يتضح من الشواهد السابقة فان الشاعر قد قسم مقاطعه اسلوبيا وموسيقيا مما اضفى عليها رونقا وانسجاما جميلا قل نظيره، وحين تستجلي المقطع السابق تستطيع ايضا ان تلمح التوافق ما بين الريح والشجر والغيم وما ترافق من حركات تنتمي الى ذات السلسلة، فعلق وعانق ونزف وصادف وبكى وارتجف، جميعها تعبر عن حالة الحراك والاهتزاز والاشتباك،لتشكل معا صورة شعرية رائعة منسجمة.

ويؤكد الشاعر ارادته الصلبة ورغبته في احتساء الحياة حتى اخر القلب عبر الاستخدام الملحوظ للفعل المضارع بصيغه المختلفة، وكأنه يعلن انه رغم اجنحة اليأس فإني ما زلت مصرا على بياضي وصمتي المقدسين، ومما يحسب للشاعر بعده عن المباشرة والخطابية، وانسيابه كجدول غائر في بلور النصوص، وكذلك ترابية صوره الشعرية الضاربة عميقا في مسك التجربة والمعاناة، والتي تجافي جثث التعقيد والغرائبية المحنية الظهر في الاستعارات والصور العقلية المستندة الى ثقافة وأفكار صانعيها القصية عن لذعة التجربة وعن لسع أقواسها.

أحمل في الليل قناديلي
أتوسل دفء الرغبة
في امرأة ظمأى
تقرأ في العتمة جسدي
تتهجى أحرف انجيلي

ايمكن لهذه الصورة ان تتدانى الا من شجرة وليد السويركي؟ أي مدينة يمكنها أن تضيء هذا النص غير مخيم الحصن حيث كان على الفتى أن يشعل قنديله، ليقرأ في العتمة المتشحة بوخزة ضوء تحلم بثمرة الكهرباء، وتتراءى بعيدا المدن المضاءة حد النهار؟ وقد يخيل للبعض أن كلمة أحرف لا مكان لها هنا وان ذكرها حشو لا ترجّى غيومه، فالانجيل يتشكل من احرف وكلمات، ويغيب. ان مصباح الكاز يجعلك تتهجى ساطع الحروف فكيف بإنجيل من حروف صغيرة.

ومع أن الشكل الذي اختاره الشاعر يوجب عليه ان ينحاز للقصيدة الصورة الا انه استطاع الفكاك من المأزق عبر «حجم الخبر» في عباراته، اذ أن معظم العبارات تحمل في شغافها فضاءات من المعنى جعلتنا نتجاوز بعض الوهن الذي اصاب الصورة الشعرية أحيانا.

الغياب صارخا
ها انا!
فاتبعوني

كل اللواتي سمعنني
آمن بي
الا.....
التي من اجلها بعثت !!

وقد شاب المجموعة ما يصيب غالب المجموعات المطبوعة حديثا من هنات مطبعية كاستخدام الفاصلة الانكليزية بدل العربية،ونصب كم مرة «مرةً» بدل جرها بتنوين الكسر، وما يصيب غالب «قصيدة النثر» من اطناب يفسد انبجاس المعنى ويسجنه ضمن محددات لا تفيد نكتة بلاغية، فنلمح الشاعر يقول:

عبثا تترصده
عبثا تتمناه
لن تلقاه

«أوليس في معنى العبث المذكور مرتين ما يغني عن عبارة «لن تلقاه»؟

فهو
لم يزل يركض
طليقا
خارج المرآة

«لماذا طليقا؟» وفي الركض خارج المرآة الف معنى تدل عليها بشفاعة ولطف جميل، ولماذا نقيد ابداع «يركض» التي لا يمكن ان نُحلّ بدلها اي كلمة أخرى، سواء أكان من جنسها ام من غيره؟ فيركض جاءت لتعبر عن تجدد واستمرار الركض بارادة وعزم واصرار،وشتان ما بينها وبين «راكضا» التي تفيد صفة قد تزول .

وفي قصيدة «ارخميدس الخائب»

وجدتها!
وجدتها!
ولكنها
«في زحام الموت والجنون»
أضاعتني

لماذا لم نترك المتلقي يسافر في سؤال «اين أضاعت حبيبها» وقيدناه بزحام الموت والجنون وكان يمكن للنص ان يتنزل في بوحه وان يتدثر بدغدغة من غموض شفيف؟

وكذلك سقوط بعض المقاطع في النثرية والمباشرة

«في صحارى الكلام
يزيد وينقص»
«ما الذي يبقيك حيا بعدها»
نص نثري عادي كثر استخدامه.
ما الذي يبقيك
قد كان الليل حولك
صار الليل فيك
«حقيقة لا تختلف عن قولنا
الارض تدور حول الشمس».

وأخيرا لا بد من التأكيد على أن بعض الهنات هنا وهناك لا تفقد المجموعة ومضة واحدة من زخات بريقها،ولا بد من الاشارة الى ان تفرد المجموعة وتجاوزها لسقف النصوص الراضية عن نفسها في مشهدنا الثقافي، وما يحمل الشاعر في غياهبه من غي التجريب ومن وجع الرؤية التي تلمستها في هذه المجموعة جعلتني امس جانبا منها بنيزك الملاحظة.

* شاعر وكاتب فلسطيني

وليد السويركي (القدس العربي)

علاقة الاسلام بالغرب في العدد الجديد من حصاد الفكر

القاهرة ـ «القدس العربي»
ـ من أحمد القاعود:

الاسلام والغرب، بين ضرورات التفاعل، وضوابطه، هو ملف العدد للعدد الجديد في دورية «حصاد الفكر» الشهرية والتي تعنى بعرض ملخصات للكتب العربية والأجنبية، وتصدر عن مركز الاعلام العربي.

وأول الكتب التي تم عرضها في الملف هو كتاب «الاسلام والعالمية والسامية» للدكتورة سهاد حسين قليبو ويعرض له علي عبدالفتاح الحاروني، وترى فيه المؤلفة أن رفع شعارات السامية والادعاء بأن الساميين هم بنو اسرائيل هي مغالطة للواقع تماما، فالسامية ليست لها أية علاقة بملة الانسان فهي اذن كما ترى المؤلفة فكرة مقننة ومدروسة للتفرقة العنصرية، ونظرية الأفضلية العرقية والفكر الأحادي الجانب، وبذلك فهي فكرة ابتدعها اليهود لاستغلال المصالح العالمية لتصب في هدف واحد هو تحقيق أهدافهم وأطماعهم التوسعية.

أما الكتاب الثاني ضمن الملف فهو لمؤلفه كاي حافظ بعنوان «الاسلام والغرب» والمتأصلة في التاريخ منذ عصر النبي عليه الصلاة والسلام، حظيت باهتمام كبير من قبل المفكرين والسياسيين ورجال الدين، والقسم الأول من الكتاب يستعرض أسس تلك العلاقة وأبعادها، بينما يتناول القسم الثاني دراسات ميدانية أجريت على بعض الأقاليم الاسلامية.

ويأتي الكتاب الثالث بعنوان «المسلمون والآخر، أسس لتبادل الحوار والتعاون السلمي» لمؤلفيه الدكتور جعفر عبدالسلام وأحمد السايح، وتعرض له منى أمين، وهو يتناول عدة أفكار منها تأصيل العلاقة بين البشر في المنظور الاسلامي، والاسلام والحوار.

أما الكتاب الرابع الذي يعرض له حمدي عبدالعزيز فهو من تأليف د، أحمد داود أوغلو، بعنوان «العالم الاسلامي في مهب التحولات الحضارية» ويحتوي الكتاب على عدة فصول تبدأ بنقد لنظرية النهاية ثم أبعاد الأزمة الحضارية ومحاولات التغلب عليها، والأبعاد السياسية للتحول الحضاري، ثم يطرح المؤلف رؤيته والتي تتمثل في أن الاسلام بديل نظري ورؤية جديدة للنظام العالمي.

ويعرض سمير محمد شحاتة للكتاب الأخير في ملف العدد وهو للكاتبين أحمد الجهيني ومحمد مصطفى بعنوان «الاسلام والآخر» حيث يناقش الكتاب الحقوق والواجبات التي أقرها الاسلام لغير المسلمين، وأسباب توتر العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ونظرية صدام الحضارات، كما يحتوي قسم ـ في العمل الاسلامي – في الدورية عرضا لكتب الحركة الاسلامية في قطاع غزة بين الدعوة والسياسة من تأليف عدنان أبو عامر وكتاب «دخول الاسلام مصر» لجميل عارف.

أما القسم الخاص بالسياسة والاقتصاد، فيعرض فيه كتابان أحدهما عن دول القوة ودول الضعف للدكتور فاروق عمر عبدالله والآخر حول الاستثمار الأجنبي المعوقات والضمانات القانونية للدكتور دريد محمود السامرائي.

وبينما تعرض الدورية لعدة كتب أخرى في مجالات مختلفة، فانها قامت بعرض لشخصية العالم العربي «أبو الريحان البيروني» من اعداد منتصر محمد عفيفي.

الأنْبـار

عبد اللّطيف الورارى*

هنُا
أوْ هنُاك
بيْن نَهْريْن
أوْ في جنَاحِ فرَاشَة
أوْ علَى كفّ عفْريت
أوتحْت دبّابة هامفي
أوْ وسطَ شهُودِ بني قُنَيْقاع

لا نعْرفُ كمْ يدُومُ الْغناءُ منْبوراً منْ
حنْجرَتها ـ
راعيةِ الأشْواق،الْغريبةِ ووَرِيثَة الأمْطارِ عامِ
الجوُع
في نوْمها الذّي ترَفّ حوْلَهُ الأقْواسُ
،ويرْعاهُ صَفيرُ الْقَصَب
إنْ كانَ يمرُّ بها ،في جوْقةِ الجِنْاس ،المُتنبّي
إلى ما تُحبّ منْ صيْد.
ترْمي بالنّرْد
في الأقْدام التّي تعْزفُها

وتغْدي الضّفائرِ
عَظيمْ
مهْما سبختْ في رَماد

وَاكْفَهرّ الْوَعْدُ في يديْنْ:

ّيضْحكُ الْحجّاجُ منّي :طبْت نفْساً
.والشُّعوبيّون مرْضى بالْمَلاريَا

يغْرمونَ الْبَرْد بي.و إلَيّ هولاكوُ يُمنّي النّارَ
لوْ أذْكتْ عليّ الأخْشبيْنْ .

نظرَتْ حوْلي أسألُ الأيْتام إنْ غَرفوا دمَي
برْدانَ كَيْلا تَصْدُقَ الْغرْبانُ في

عصْفي نظرَتْ.يقُولُ في نفْسي بنُو الْعبّاس
سرّي ياغَريبةُ لا رؤى الْمَوْتى،

ولا ذَهبُ الْمُعزّ يفُتُّ في رُوحِ الْغَريبةِ.
منْ حُطام الأرْض تحْتي.
أسْمعُ الْعتَبات.

في بذْلِ النّخيلْ:ّ
مهْما تضْربُ الْكثْبان
سقْفَ الحيْطان منْ ميراث الْعَجوُز
ومهْما السّاعَات في ضُمور الأيادي
ومهْما الْيوْم،و الرّايات و عيدُ التُّوت
إذْ يلْتَقمُ اللّعْنة كلابٌ منْ قشّ
يهُمُّ الأغْنيّة ، في نهايةَ الظّلال،
مَا تشيرُ به وارفةُ الْغيْمات
منْ أصابعها التّي تبْرقُ بها
إلى الحيْاة التّي بُيّتْ بلَيْل.

مترنّحاً منْ نأمةٍ نادتْ على قدميّ
كمْ حالْ
على الآثار.
أصحب همْهمات الطّيْر تخْرجُ من حصاةٍ
لمْ يفضْ كأسي بماءٍ دونَ شوْقٍ
للصّفات
فَضضتُها سكرى بدُوبيت الخبْايا
إنْ سألْتُ القلْبَ:
ما بي لا يمرُّ عليّ وجْهي
كاتماً فتْنته الْبليلة؟
هل عصيتُ الصّمْتَ حتّى يستباحَ عليّ
وجْهي
في المنافي
هاوياً
في غير تُخْمٍ عاصفٍ بعَصى الطّريق ؟ْ

* شاعر من المغرب

شاهد نفي

أعلمة الثقافة أم تثقيف الإعلام؟

خيري منصور*

■ أحيانا يسطو مصطلح رائج ومتداول على نطاق واسع على عدة مصطلحات مجاورة له على صعيد اشتقاقي، والأعلمة قد تبدو مفردة تعرضت لخطأ مطبعي، لأن العولمة هو المصطلح الأكثر شيوعا منذ عقد من الزمن.

ما أعنيه بأعلمة الثقافة تجييرها وتسخير طاقاتها للإعلام حسب أدنى تعريف عربي له في العقود الأربعة الأخيرة، بعد أن تحول إلى حيوان خرافي متعدد الرؤوس واحترف التبرير والمزاوجة بين الشيء ونقيضه، وبدلا من أن ينصرف الجهد الى تثقيف الإعلام، وتحريره من مستوطنات الأدلجة ومنتجات النظم التوتاليتارية حدث العكس، وهو أعلمة الثقافة وربط عربتها بخيول الإعلام أو ببغاله لا فرق!

وثمة ثلاث مراحل على الأقل مرت بها أعلمة الثقافة، هي على التوالي، تدينها وتحويلها إلى أبواق لثورات وانقلابات كان العسكر هم عقلها وأداتها، واقترن هذا التدين حسب المثال العربي بالصراع العربي ـ الصهيوني، قبل وبعد عام 1948، حين عثر النظام العربي على حيلة ماهرة لكنها محدودة الصلاحية، وهي تأجيل كل شيء لصالح المعركة العاجلة مع العدو.

وأول ضحايا هذا التأجيل التعبير على اختلاف منابره ووسائله، ما دام الصوت الأعلى هو للحرب وكل ما عداها هو احراف وتحريف وصرف للانتباه الشعبي عن القضية الوطنية، لهذا سجن مثقفون وجاع آخرون ونفي العديد من مثقفي العرب تحت شعار واحد له تجليات مختلفة منها بل في مقدمتها شعار حشد الطاقات من أجل الدفاع عن وطن مستهدف، وقد شمل التأجيل عدة مستويات أخرى منها الاقتصادي كالتنمية بمختلف أنماطها، ومنها الأكاديمي الذي حاصر الطلبة داخل أسوار الجامعات بعيدا عن الحياة العامة وشرايين المجتمع، ومنها التربوي الذي اختزل الى بعد واحد، بحيث أصبح الكذب مبررا، والمراوغة مطلوبة بإلحاح، ما دام الخطاب المعلن يكرس الشعار لكنه لا يترجمه وأحيانا يقدم له مضادات أخلاقية ووطنية وثقافية.

المرحلة الثانية من استراتيجية أعلمة الثقافة ثقافية ودور نشر ومجلات وصحف، تشترك جميعها في معروفة واحدة، لأن المايسترو هو السلطة ذاتها سواء حملت اسم جنرال أو تنكرت تحت اسم شاعر أو روائي، وقد ضاعفت متوالية الانشقاق والتصحيح داخل النظام الانقلابي من أعلمة الثقافة لأنها أضافت إليها البعد السياسي بمعناه البراغماتي وليس بالمعنى الفكري التحليلي.

هكذا دخل مثقفو النصف الأول من القرن العشرين الى حقبة تعيد انتاج النقائض الشعرية في العصر الأموي، وهاجرت أدبيات الخلافة بين مؤيد ومعارض إلى الحزب والنقابة والدولة بمختلف أجهزتها!

وترتب على ذلك، ما نشكو اليوم من نتائجه، وهو تصنيع المثقفين والكتاب، ونشر أعمال لم تكن تستحق النشر لولا رعاية المؤسسات الرسمية، ولأن الحاجة تفرض على البشر أحيانا أن يتأقلموا مع الطارىء الذي يتحول إلى أمر واقع، فقد انزلق النقد الى هذه الهاوية، وأصبح هاجس كثير من النقاد استرضاء أصحاب النفوذ الواسع والنصوص الرديئة، ولم يكن هناك غربال لفرز القمح من الزؤان، ليس لأنه محظور فقط، بل لأن مصلحة الأكثرية تتطلب قدرا من التواطؤ مع النافذ والسائد والمقرر بقوة الوظيفة والموقع، والمرحلة الثالثة والتي لا تزال مستمرة حتى أيامنا هي مأسسة الثقافة بأقصى معنى سلبي للقطعنة، بحيث يتحول المبدعون إلى أرقام في سجلات الوظيفة أو استحقاقات المكافأة والمنصب والنشر.

وكان لا بد للشاعر مثلا من أن يتحول إلى شاعر قبيلة يرتدي البدلة بدلا من العباءة ويستخدم الحداثة من خلال مفردات يلتقطها ظنا منه أنها قبعة يمكن ارتداؤها أو خلعها كبديل لغطاء رأس تقليدي.

ان ما خلخلته أعلمة الثقافة بلغ في بعض الأحيان صميم المشهد الإبداعي ونذكر على سبيل المثال الطبعات الأنيقة والباذخة لدواوين شعراء ذوي نفوذ في دولهم، ونذكر مواسم احتفائية ببعضهم، وهم في حقيقة الأمر ثانويون بكل المعايير الجمالية والنقدية قياسا الى زملائهم المهجورين، وما كان يهمس في بعض المبدعين الذين لا حول لهم ولا قوة هو المقولة التي يلوذ بها المستضعفون عادة في زمنهم وهي لن يصح إلا الصحيح، وهي المعاول لمقولة الحق الذي يعلو ويطفو ولا يعلى عليه.

لكن التاريخ لم يكن على الدوام امتثالا لهذه المواعظ، فالحق الأعزل قابل للضياع في كل أوان، والصحيح مهدد بنقيضه المسلح لبعض الوقت على الأقل، وفي هذه المساحات المعلقة بين اليأس والرجاء، تنشأ أجيال وتتعاقب ذائقات وحساسيات، وقد يستمر طرد العملة الرديئة للعملة الجيدة زمنا يتيح لمهربي الوقائع النجاة بما سطوا عليه!

لقد لعبت أعلمة الثقافة دورا كبيرا في إغاثة أصحاب المواهب الشحيحة، لأن تغليب المضمون والفكرة على كل شيء آخر يتيح لهؤلاء أن يقلبوا منظومة المعايير النقدية أو على الأقل أن يجذبوا تلك المعايير إلى الأسفل بحيث تتدنى، وتفقد ضوابطها وصرامة شروطها قدر تعلق هذه الشروط بالإبداع، وقد أفرط المبشرون بأعلمة الثقافة في تهميش الثقافة الحقيقية، بل أدانوا المشتغلين في حقولها بجدية وتعمق ونشاط ووصفوهم بالهاربين من مواجهة أقدارهم، وغاب عنهم أن للثقافة أدواتها وأسلحتها المغايرة في حروبها، وهي لا تخضع بأية حال للحروب بمعناها التقليدي، فالشاعر الذي قال عنه لوتريامون بأنه يناضل ضد صدأ اللغة وتعفن المعاجم لا يدرجه من حولوا الثقافة الى تابع إعلامي في خانة الثوار، وعليه لكي يستحق هذا الانتساب الى ناديهم أن يراكم الصدأ على اللغة ويغرف من الجرار المليئة بالعطن في خوابي التاريخ.

وأبرز مثال حي على أعلمة الثقافة هو التشكيلات النقابية للمشتغلين في حقول الكتاب والإبداع، فقد كان الدمج بين الصحفيين والمبدعين حيلة استباقية لأعلمة الثقافة لأن الأرجحية الانتخابية ستكون من نصيب الصحفيين والمعلقين والموظفين في مؤسسات الثقافة التي تقضم البيروقراطية عافيتها!

هكذا وجد المثقفون والمبدعون أنفسهم في أكثر من مناسبة أقلية ان لم تكن مهمشة أيضا.

وكان من الطبيعي أن تخضع معايير التكريم ومنح الجوائز لما هو خارج مدار الثقافة، كأن يكون الولاء هو البديل للكفاءة أو مهنة التطبيل والاسترضاء هي البديل للانجاز، وقد ترتب على تكرار ظواهر من هذا الطراز أن ترسخت تقاليد جديدة ومضادة لأعراف العالم، بحيث يكافأ الموظف الداجن والامتثالي ويعاقب أو يقصى المبدع الذي لا يحمل غير أسئلته وهواجسه وبراءته الأصيلة!

ان الحاق عربة الثقافة ببغال الإعلام أو خيوله الهرمة أفقدنا الاثنين معا، الثقافة والإعلام فبدلا من تثقيف الإعلام وتطوير رؤاه ومناهجه وديناميات حدث العكس وهو تهجير كل ما يشكو منه الإعلام من تبعية ودوغماتية وتضليل الى الثقافة، والابتكار العربي على هذا الصعيد تجلى في المزج العشوائي بين الإعلام والثقافة في مؤسسة واحدة، يصعب على المراقب أن يفرز فيها الإعلامي الذي يعمل بوقا عن المثقف اللائذ بالصمت! ما دام الاثنان يشتركان في مبنى واحد، وغرفة واحدة ومطلوب منهما استلهام الشعارات ذاتها.

ولا أظن أن أبا تمام الذي قال السيف أصدق إنباء من الكتب، كان يبشر بتهميش الكلمة، لصالح السيف، رغم أن هناك أحفادا للشاعر أعادوا انتاج قوله كي يلائم واقع الحال، والمفارقة هي ان السيوف التي امتدحها الشاعر في معركة عمورية منها ما ضاع وما غمره الصدأ في الغمد وما أصبح أداة لتقشير البصل، لكن كلماته هي التي مكثت في الكتاب، وتناقلتها الأجيال لعدة قرون!

ولو سعى العرب المعاصرون إلى تثقيف إعلامهم كما كانوا يفعلون بالنخيل والرماح لبقيت الثقافة حصينة من هذه المستوطنات التي تحولها من صوت الى صدى ومن ينبوع ضوء الى ظل، وإذا كان المقصود بالواجهات الثقافية ذات البعد السياحي في أيامنا أن تكون استكمالا للإعلام الناقص، فإن هذه الثقافة برمتها تصبح في خطر، لأن توظيفها لما يتخطاها و بمثابة حذف تدريجي لها من التاريخ، فالثقافة ليست عمرانا أو مهرجانات وفعاليات موسمية يتبادل فيها الضيف مع المضيف المجاملة والترتيب على الأكتاف، انها أولا وقبل أي شيء اعتراض على المعطي، وهاجس أصيل للتقويم، ونقد السائر، الذي تسلح بشرعية مصدرها الوحيد هو الشيوع والتكرار!

ان ما ينفق على الثقافة الآن في العالم العربي من شأنه أن يساهم في تنمية ثقافية فاعلة، لكنه ينفق على اكسسوارات الثقافة لا عليها، وأحيانا يصبح الإسراف في التمظهر الثقافي تعويضا عن غياب الجوهر، وكان المقصود بالكثرة والتواتر هو التعويم، وخلخلة أي معيار يمكن الاحتكام إليه.

وإذا كان تثقيف الإعلام قد أصبح مهمة عسيرة بعد أن سطت عليه أمية سياسية، وعصاب ايديولوجي ونوازع نرجسية فإن أعلمة الثقافة هي المهمة الأيسر، وها هي في ذروتها.

والزائدون عن هذه الأعلمة هم أعداء الثقافة بامتياز وخصوم المانعة لأنهم يختنقون إذا غادروا الأقبية العطنة و«الحرملك» الثقافي الجديد!

* شاعر وكاتب من الاردن